ذكرى ميلاد الرسول

للأستاذ محمد يوسف موسى

كلما خطر بالبال أو جرى على اللسان ذكر مولد محمد صلى الله عليه وسلم تذكرنا الدين الذى جاء به فكان فارقاً بين الحق والباطل، وحدا فاصلاً بين عهود خلت لبستها الإنسانية وأخلقتها بعد أن اجتوتها، وعهد جديد آهل بالعز والكرامة. حقاً لقد كان ميلاد الرسول إيذاناً بانتهاء ما سبقه من أديان كانت مناسبة لمن جاءت إليهم، وباستهلال الإسلام الدين الخالد الصالح للناس جميعاً؛ لا فرق بين بدو وحضر، وسود وبيض، وشرقيين وغربيين، تقدم بهم الزمان أو تأخر

وليس من العجب أن يجيء دين صالح عام بعد دين قاصر خاص، بل كان يكون العجب ألا يكون هذا التدرج الذى عرفه التاريخ. لقد ولدت الجماعة البشرية طفلة، وترقت — شأن كل الكائنات الحية — جيلاً فجيلاً، فمرت من الطفولة للشباب، وانتهت أخيراً لدور الرجولة الرشيدة الكاملة. وكان من حكمة الله اللطيف الخبير أن تتفق الديانات التى تعبّد بها عباده فى الأزمان المختلفة، وعقول من أرسلت إليهم ومداركهم وحاجاتهم. لهذا رأينا الرسول يتبع الرسول، والدين يجيء فى أثر الدين، وكل له ناسه المحدودون وزمنه الموقوت، حتى بعث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بدين الناس جميعاً والإنسانية عامة، فتمت به نعمة الله على عباده وكملت لهم السعادة

ولنعرف قيمة منة الله على العالم بأسره بميلاد محمد وبعثه بتاج الأديان، يجب أن نقلب بعض صفحات التاريخ، ونتذكر قليلاً حالة المسيحية التى كانت لها السيادة قبل الإسلام على جزء كبير من العالم المعروف بالمدنية حين ذاك

لقد ظهرت المسيحية فى عصر كان المال هو المعبود من دون الله، وكانت الشهوات حتى الوضيع منها هى التى تأخذ على الناس أمرهم وتوجههم فى أعمالهم، طلباً لها وتهافتاً عليها كما يتهافت الفراش على النار. وحسبنا أن نعلم أن مذهب أبيقور، فى أوضع ما اتخذ من صور إباحية، كان مذهب الكثرة الغالبة، فى بلاد الرومان ميدان نشاط المسيحية بعد مهدها الأول وهو الشام. غلو من اليهود فى طلاب المال وجمعه من كل النواحى وبسائر الوسائل، وغلو فى الافتتان بالشهوات ومتع الحياة الدنيا. هكذا يمكن تصور ما كان يسود العالم من نزعات إبان ظهور المسيحية

من أجل ذلك كان طابع المسيحية زهداً شديداً، ولهذا رأينا المسيح عليه السلام معرضاً تمام الإعراض عن الدنيا وحاثا حواريه وأتباعه على التخلص منها ومن أسرها ومفاتنها، ومؤكد أن ملكوت لن يفتح للأغنياء، وأنه سيكون وقفاً على الفقراء. لكن للنفس شهوات يجب أن ترضى فى قصد، لهذا كان من الطبيعى ألا يطيق من جاء لهم هذا الدين وصاياه الشديدة، وما يدعو له من زهد وتقشف وترك تام للدنيا؛ « فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا إليه ما شاء الهوى من الأباطيل[1] ».

ولعل من الخير أن نذكر شاهداً ودليلاً على ما نقول من تهالك عامة رؤساء الدين المسيحى أنفسهم على الدنيا. روى ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق فى خبر طويل أن سلمان الفارسى — وكان فى بدء أمره مجوسياً من أهل أصبهان — صبأ إلى المسيحية، إذ أخذ بقلبه ما سمعه من صلوات وتراتيل دينية، فغافل أباه — وكان دهقان قرية — وفر إلى الشام ليأخذ علماً من علم أهل الإنجيل وليتصل برؤساء هذا الدين. ولما وصل إلى تلك البلاد سأل عن أفضل هذا الدين علماً، فدُلّ على أُسقُف الكنيسة، فذهب إليه واستأذنه فى خدمته ليتعلم منه ويلتمس من فضله ... وهنا أترك الحديث لسلمان نفسه يقول: « وكان — يريد الأسقف — رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ». ولما مات ووقفت النصارى على ما كان يفعل، وأريتهم موضع كنزه فاستخرجوه، وحنقوا على الأسقف وقالوا والله لا ندفنه أبداً[2].

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٦٨

(٢) سيرة ابن هشام طبع مصطفى محمد ص ١ : ٢٣٥

ومما يجب أن يلاحظ ـ وقد بلغنا هذا الموضع من نبأ سلمان ـ أن النصارى أقاموا بعد الأسقف الذى ذكرنا خبره آخر لم ير سلمان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ، فأقام معه زماناً ، ولما حضره الموت طلب إليه أن يوصى به من يرى فيه الخير مثله فقال له : « أى بنى ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان وهو على ما كنت عليه فألحق به »[1] . فعل سلمان وحمد لصاحب الموصل — وقد خبره — دينه وأمره ، ولما حانت منيته لم ير من يوصى به إليه إلا آخر بنصيبين ، وهذا لم يجد من يوصى به إليه حين أشرف على الموت إلا رجلاً بعمُّورية من أرض الروم ، لأنه كما يرى صاحب نصيبين آخر من بقى على الدين المسيحى ونهجه الصحيح حين ذاك . ومعنى هذا أن الناس فى ذلك الزمن لم يطيقوا الدين المسيحى ، فانسلخوا منه شيئاً فشيئاً لما طال بهم الأمد ، وقست قلوبهم فما رعوه حق رعايته

وهنا أتنفّس عن نفسى بالإشارة إلى ظاهرة أحسستها من زمن بعيد وجهدت فى أن أجد لها تعليلاً : هى أن الغالب على رجال الأديان عامة — حتى المسلمين — فى هذا الزمن حب المال وجمعه والاستكثار منه ، وعدم المسارعة إلى أفعال البر التى تقتضى البذل والإنفاق ! لماذا ! لا أدرى ، اللهم إلا أن يكون معرفتهم بالدين معرفة دقيقة ، والإحاطة بما دونه المتأخرون من الفقهاء فى تآليفهم ، كل ذلك جعل منهم على حبل الذراع تعلات ليست من الحق فى شىء ، تجعل من المتين عليهم ما تحسبه فيهم من إقبال على الدنيا شديد وتخلف فى ميادين البذل والإنفاق !

ومهما يكن فقد كانت المسيحية وما تدعو إليه من غلو فى الزهد ، وكان أهلها وما فتنوا به من حب المال والشهوات وعروض هذه الحياة ، ممهداً طيباً للاسلام الذى جاء والإنسانية قد بلغت رشدها فكان ديناً وسطاً فيما لا عوج فيه ، دين عرف الجسم حقه والروح حقها ، فلم يوجب التقشف ولم يحرم التمتع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ولم يغلق أبواب الجنان دون الأغنياء كما أعلن عيسى عليه السلام ، بل إنه رفع الغنى الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر وربما فضله عليه . دين نهانا عن الغلو فى طلب الآخرة ونسيان الدنيا ، وبخاصة وهذه قد تكون من وسائل تلك ، قاصا علينا ما قال قوم هارون له : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » دين لم يقل رسوله كما قال المسيح لواحد من أنصاره « بع مالك واتبعنى » ، بل قال لسعد بن أبى وقاص وقد استشاره — وهو عليل مدنف وذو مال كثير — فيما يتصدق به : « الثلث والثلث كثير ! إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » ، وهكذا نجد الإسلام يتناسب وما بلغته الإنسانية من رشد ، والدين الذى استحق أن يكون خاتم الأديان بما يؤدى إلى سعادة الناس جميعاً مهما اختلف بهم الزمن

إذا كان هذا شأن العالم والمسيحية بصفة عامة ، وهو شأن كان ينادى بضرورة دين جديد فلبى الإسلام النداء ، فكيف كان حال العرب وهم مهد الإسلام ومنبته ؟ لا أظن المرء يأتى بجديد إن عرض حالة العرب قبل ميلاد الرسول وبشه بخير دين ، فقد كثر فى ذلك الكلام ، فلأقتصر إذن على كلمة قصيرة تبين منها كيف كان العرب يعكفون على ما كانوا عليه من ضلال فى الدين ، وضلال فى التقاليد ، وشدة فى الخضوع لما كان عندهم من أوثان وأصنام ؛ وهى حالة تستوجب الإنقاذ السريع بدين يرد للانسان شرفه وكرامته بعد أن ألغى عقله وعبد فى موطن البيت الحرام بعض ما كان يصنع بيديه !

والحديث قد طال فنرجئ تمامه إلى العدد الآتى إن شاء الله

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٢٦ ، ٢٨ ، ١٨

حكم فى القضية ٤٨٢ جنح عسكرية طنطا سنة ١٩٤٢ ضد عبد الرحمن أحمد زويع بحبسه ثلاثة أشهر شغل ليمه لموماً بسعر أكثر من المحدد بجلسة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤١

حكم فى القضية ٩٨٢ جنح عسكرية طنطا سنة ١٩٤٢ ضد أحمد عبد الرؤوف الاسلامبولى بحبسه شهر شغل ليمه سكرا بسعر أكثر من المحدد بجلسة ٢ فبراير سنة ١٩٤٢